السقف المحفوظ والسقف المرفوع

في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

د. مروان وحيد شعبان

الأستاذ المشارك في كلية الآداب والعلوم

في الجامعة الكندية بدبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين:

أهمية البحث: إن من كرم الله تبارك وتعالى، أن أقبل كثير من الباحثين في الدراسات القرآنية على التفسير الموضوعي، حيث يجمعون الآيات المتفرقة في سور القرآن الكريم، والمتعلقة بالموضوع الواحد، ثم يفسرونها حسب المقاصد القرآنية، التي تكشف عن الروابط المتنوعة التي تشدُّها كلها وتجعل منها "وحدة موضوعية" مما يثمر موضوعات قرآنية متكاملة جديدة في عرضها وطرحها، يستفيد منها أبناء الأمة في حاضرهم ومستقبلهم، بالإضافة إلى أن هذا النمط من التفسير يُعد تأصيلاً للدراسات القرآنية الموضوعية، في سياق من الحيوية التي يستطيع الباحث أن يبرز جوانب جديدة من وجوه إعجاز القرآن الكريم.

هدف وسبب اختيار البحث: إن سبب اختياري للبحث يكمن في إبراز الأهداف والمقاصد القرآنية في الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم، ومن أوّل هذه الأهداف بيان عظمة الخالق تبارك وتعالى في خلقه وكونه، إذ إن التفسير الموضوعي يستجمع الآيات القرآنية في موضوع واحد، ثم يقوم بإيجاد العلاقة الرابطة بينها، ثم يستخلص المقاصد القرآنية منها، وبالتالي ينعكس قوة في الإيمان، وزيادة في الوعي والثقافة القرآنية، ويشجع الباحثين على بذل جهد أكبر في هذا الميدان، مما يعود بالنفع العام على المسلمين عاجلاً وآجلاً.

الجديد في البحث: من هنا جاء هذا البحث ليضع لبنة جديدة في التفسير الموضوعي، حيث لم أجد خلال دراستي للموضوع – وفيما وقفت عليه – أحداً من الباحثين الأكارم، أفرد موضوعـًا واحداً حول السقف في القرآن الكريم (السقف

المحفوظ والسقف المرفوع) ثم جمع الآيات المرتبطة بهاتين الآيتين في بحث واحد، ثم قام بدراستها تفسيراً وإيضاحاً في إطار الموضوع الواحد.

منهجية البحث: سلكت في البحث منهجي الاستقراء والتتبع، حيث تتبعت الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع (السقف المحفوظ والسقف المرفوع في القرآن الكريم) وقمت بدراستها وفقاً للخطوات التالية:

١- جمع الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع.

٢- إيراد أقوال بعض المفسرين - رحمهم الله تعالى – حول الآيات المتعلقة بالبحث.

٣- العودة إلى المعاجم اللغوية في بعض الأحيان إن اقتضى الأمر.

٤- جرياً على منهج المفسرين – القدامى والمعاصرين – فإني أستجمع المعاني المتعددة للآية القرآنية من جهة الموضوع الذي يراد معالجته في ضوء المأثور والمعقول، فمثلاً نجد أن المفسرين يقولون: في هذه الآية سبعة مسائل أو أكثر أو أقل، ثم يشرعون في عرض هذه المسائل اللغوية والبلاغية والشرعية والعلمية... وهنا حاولت في بحثي أن أضيف بعض المسائل العلمية في تفسير الآيات الكريمة، بعد استعراض المسائل الشرعية، وهذا لا علاقة له إطلاقاً في موضوع الإعجاز العلمي في القرآن، إنما هو تفسير علمي وإضافة لمسألة علمية في جانب من جوانب الآية الكريمة، وتفسير الإمام الرازي والألوسي وغيرهما خير شاهد على هذا المنهج.

خطة البحث:

جاء البحث في مقدمة ومبحثين وخاتمة:

المقدمة: تناولت في المقدمة أهمية التفسير الموضوعي، وأشرت إلى أهمية البحث، وذكرت سبب اختيار الموضوع وأهداف البحث، والجديد في البحث، والمنهج المتبع في البحث.

المبحث الأول: السقف المحفوظ في القرآن الكريم: بعد تعريف المصطلحات الأساسية في البحث، تحدثت فيه عن أربعة مطالب هي:

المطلب الأول: السقف المحفوظ من الشرك.

المطلب الثاني: السقف المحفوظ من الشياطين.

المطلب الثالث: السقف المحفوظ من الهدم والنقض.

المطلب الرابع: السقف المحفوظ بمعنى الحافظ.

البحث الثاني: السقف المرفوع في القرآن الكريم: تحدثت فيه عن ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: السقف المرفوع متماسك ومحكم.

المطلب الثاني: السقف المرفوع مبني بغير أعمدة مرئية.

المطلب الثالث: السقف المرفوع محبوك بدقة عالية.

الخاتمة: وفيها خلاصة البحث وأهم النتائج، والجديد الذي توصلت إليه... وأسأل اللهَ تبارك وتعالى القبول، إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين.

د. مروان وحيد شعبان

٠٢ جمادى الأولى١٤٣٥ هـ ٢١ مارس ٢٠١٤م

إيميل (١) marwan@cud.ac.ae

إيميل (٢) marwan_wahid@hotmail.com

الجوال: ٠٠٩٧١٥٥١٠٠٠٩٠٦

المبحث الأول: السقف المحفوظ في القرآن الكريم

تعريف المصطلحات:

أولاً: تعريف السماء.

السماء في اللغة تدل على العلو، فكل ما علا وسما فوق رؤوسنا فهو سماء، قال ابن فارس:(سمو) السين والميم والواو أصل يدل على العلو، يقال: سموت، إذا علوت، وسما بصره: علا... والسماء: سقف البيت، وكل عالٍ مطل سماء، حتى يقال لظهر الفرس: سماء، ويتسعون حتى يسمّوا النبات سماء(١).

ثانيـًا: تعريف السقف.

السَقْفُ للبيت، والجمع سُقوفٌ وسقف أيضـًا... وقد سقفت البيت أَسْقُفُهُ سَقْفـًا، والسَقْفُ: السماءُ، والسَقائِفُ: ألواحُ السفينةِ(٢)...قال الفراء: سقفـًا إنما هو جمع سقيف، كما تقول كثيب وكثب، وقد سقف البيت يسقفه سقفـًا، والسماء سقف على الأرض... والسقيفة: كل بناء سقفت به صفة أو شبهها مما يكون بارزاً(٣).

ثالثـًا: تعريف السقف المحفوظ.

حفظ يحفظ حفظـًا فهو حافظ من اسم الفاعل، ومحفوظ من اسم المفعول، والحفظ يعني التعاهد والحراسة والمراقبة والرعاية... والحِفْظ: نقيض النِّسيان، وهو

(١) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م، ٣/ ٩٨.

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧ م، ٤/ ١٣٧٥، وانظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري اليمني، المحقق: د حسين بن عبد الله العمري وآخرون، دار الفكر المعاصر بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٩ م ٥/ ٣١١٦.

(٣) لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ هـ، ٩/ ١٥٥.

التَّعاهدُ وقلّة الغَفْلة، والحَفيظ: المُوَكَّل بالشيء يحفَظْه، والحَفَظَةُ جمع الحافظ، وهم الذين يُحصُون أعمال بني آدَم من الملائكة(١)، وَقَوله تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ (٢)، قَالَ الزّجاج: حفظه الله من الْوُقُوع على الأَرْض إِلَّا بأذنه، وَقيل: مَحْفوظا بالكواكب(٣).

رابعـًا: تعريف السقف المرفوع:

هو السماء التي رفعها بلا عمد يرونها من أسفل، ولا تعليق من الأعلى، على بعدها من الأرض، وسعتها وعرضها وشدتها وغلظها(٤).

بعد استعراض معاني المصطلحات الأساسية في البحث (السماء، السقف، المحفوظ، المرفوع) يتسنى لنا أن نحدد ونجلي في المبحث الأول مظاهر "السقف المحفوظ" ثم في المبحث الثاني مظاهر "السقف المرفوع" وذلك من خلال سوق بعض أقوال المفسرين قديمـًا وحديثـًا، ثم توسيع دائرة فهوم المفسرين إلى معان جديدة على ضوء العلم، بما ينسجم ويتناسب مع مدلول المصطلحات القرآنية الكريمة، وبإمكاننا تحديد معنى السقف المحفوظ بالعناصر التالية، ثم شرحها وبيانها تباعـًا وهي:

١- السقف المحفوظ من الشرك.

٢- السقف المحفوظ من الشياطين.

---

(١) كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ٣/ ١٩٨.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٢.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ م، ٣/ ٢٨٥.

(٤) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) محمد بن محمود، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، ٩/ ٤٠٢.

٣- السقف المحفوظ من الهدم والنقض.

٤- السقف المحفوظ بمعنى الحافظ.

المطلب الأول: السقف المحفوظ من الشرك.

ذكر غير واحد من المفسرين أن المقصود بالسقف المحفوظ هو الحفظ من الشرك، ذلك أن رفع السماء بلا عمد، وحفظها من الهدم والسقوط، من أوضح الأدلة على عظمة الخالق ووحدانيته وتفرده بالخلق، قال الإمام القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ "قيل: محفوظاً من الشرك والمعاصي، ﴿وهم﴾ يعني الكفار ﴿عن آياتها معرضون﴾ قال مجاهد: يعني الشمس والقمر، وأضاف الآيات إلى السماء لأنها مجعولة فيها، وقد أضاف الآيات إلى نفسه في مواضع، لأنه الفاعل لها، بيّن أن المشركين غفلوا عن النظر في السموات وآياتها، من ليلها ونهارها، وشمسها وقمرها، وأفلاكها ورياحها وسحابها، وما فيها من قدرة الله تعالى، إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعا قادرا واحدا فيستحيل أن يكون له شريك"(١).

وإلى هذا أشار الإمام الماوردي في تفسيره فقال: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ "محفوظاً من الشرك والمعاصي"(٢).

وقال الإمام الطبري: قوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾..."هؤلاء المشركون

(١) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن فرح الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة، الثانية، ١٩٦٤م، ١١/ ٢٨٥، وانظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، المحقق: الشيخ محمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ٤/ ٨٥.

(٢) النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد الشهير بالماوردي، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت، ٣/ ٤٤٥، وانظر: فتح القدير، محمد بن علي عبد الله الشوكاني، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ، ٣/ ٤٧٩.

عن آيات السماء، ويعني بآياتها: شمسها وقمرها ونجومها، (معرضون) يقول: يعرضون عن التفكر فيها، وتدبر ما فيها من حجج الله عليهم، ودلالتها على وحدانية خالقها، وأنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا لمن دبرها وسوّاها، ولا تصلح إلا له"(١).

ولذلك فإن التأمل في السماء وخلقها، ورفعها، واتساعها، يدفع العبد إلى الإخبات والدينونة لله عز وجل، وهذا ما استرعانا القرآن الكريم إلى التفكر والتدبر فيه، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾(٣).

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾(٤).

المطلب الثاني: السقف المحفوظ من الشياطين.

الآيات الدالة على هذا المعنى عديدة منها:

قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ، وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ، إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾(٥).

وقوله عز وجل:﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ، وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة – بيروت ودمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ١٨/ ٤٣٦.

(٢) سورة سبأ: ٩.

(٣) سورة ق: ٦.

(٤) سورة الغاشية: ١٧ – ١٨.

(٥) سورة الحجر: ١٦.

مَّارِدٍ، لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ، دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ، إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (١).

وقوله تبارك وتعالى:﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٢).

وقوله تعالى:﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ (٣).

وقوله تبارك تعالى:﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (٤).

وكيفية حفظ السماء من الشياطين تكون بواسطة النجوم، وهذا ما أشارت إليه الآيات القرآنية السالفة، حيث يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض ﴿بزينة الكواكب﴾، وقوله ها هنا: ﴿وحفظاً﴾ تقديره: وحفظناها حفظاً، ﴿من كل شيطان مارد﴾ يعني: المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه، ولهذا قال: ﴿لا يسمّعون إلى الملإ الأعلى﴾ أي: لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى، وهي السماوات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله مما يقوله من شرعه وقدره...ولهذا قال: ﴿ويقذفون﴾ أي: يرمون ﴿من كل جانب﴾ أي: من كل جهة يقصدون السماء منها، ﴿دحوراً﴾ أي: رجماً يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك، ﴿ولهم عذاب واصب﴾ أي: في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر(٥).

---

(١) سورة الصافات: ٦.

(٢) سورة فصلت:١٢.

(٣) سورة الجن: ٨.

(٤) سورة الملك: ٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م، ٧/ ٧، وانظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم=

والملأُ الأعلى: الملائكة أو رؤساؤهم، والمعنى: لا يتمكن مردة الشياطين أن يتسمعوا، ويصغوا إلى الملائكة وهم يتحدثون فيما عهد الله به إليهم من شئون الخلائق، فقد حفظت السماء منهم بشهب أصلها من الكواكب، فإن حاولوا الاستماع يقذفون بها من كل جانب من جوانب السماء، ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ الدُّحُور: الطرد، والواصب: الدائم أو الشديد، والمعنى: ويقذف أُولئك الشياطين بالشهب من كل جانب، لأجل دحرهم عن مجتمع الملائكة في جو السماء، وهم يتحدثون فيما عهد الله به إليهم، ولأُولئك الشياطين عذابٌ شديد دائم في الآخرة، غير عذاب الإحراق بالشهب في الدنيا.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي: لا يتسمع أولئك الشياطين إلى الملأ الأعلى، إلاَّ من اختلس منهم كلام الملائكة مسارقة، فتبعه شهاب ثاقب، أي: شعلة قوية الضوء والحرارة فتحرقه، والشهاب: واحد الشهب، وهي أحجار صغيرة منفصلة عن الكواكب، سابحة في فضاء الله تعالى فإذا وصلت في دورانها إلى جاذبية الأرض جذبتها، فمرت بسرعة متجهة نحوها، فمن سرعتها تحترق بقوة احتكاكها المتتابع السريع بالهواء، ويكون لاحتراقها لمعان مستطيل. ثاقب: أي ساطع(١).

وأما عن كيفية اختلاس الكلام من الملأ الأعلى، فقد بيّن القرآن الكريم ذلك ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، وقد ذكر المفسرون أن الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء، فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من

=محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ ٤/ ٣٦.

(١) انظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م، ٨/ ٤٠٢.

الغيوب، وكانوا يخبرونهم به ويوهمونهم(١).

يقول الإمام البغوي: "إلا من خطف الخطفة، اختلس الكلمة من كلام الملائكة مسارقة، فأتبعه، لحقه وأدركه شهاب ثاقب، كوكب مضيء قوي لا يخطئه يقتله، أو يحرقه أو يخبله، وإنما يعودون إلى استراق السمع مع علمهم بأنهم لا يصلون إليه طمعاً في السلامة ونيل المراد، قال عطاء: سمي النجم الذي يرمى به الشياطين ثاقباً لأنه يثقبهم"(٢).

وهناك العديد من الأحاديث الصحيحة التي توضح هذه المسألة، من ذلك ما رواه الإمام البخاري وغيره، من حديث عروة بن الزبير رضي الله عنه يقول: قالت عائشة، رضي الله عنها: سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان، فقال: "إنهم ليسوا بشيء"، قالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقاً؟ فقال النبي ﷺ: "تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني، فيقرقرها (أي يرددها) في أذن وليه كقرقرة الدجاجة، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة"(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: إن نبي الله ﷺ قال: "إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً (أي خاضعين منقادين) لقوله، كأنها

---

(١) انظر: محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد القاسمي، المحقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ ٨/ ٢٠١، وانظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ، ٣/ ٣٥٥.

(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن، محمد بن الفراء البغوي الشافعي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ، ٤/ ٢٧.

(٣) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، كتاب التوحيد، باب: قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم، رقم (٧٥٦١).

سلسلة على صفوان، حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع، هكذا بعضهم فوق بعض"، ووصف سفيان بيده فحرّفها (أي يده)، وبدد بين أصابعه (أي فرّج بين أصابعه) "فيسمع الكلمة، فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر -أو الكاهن -فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء"(١).

والملحوظ الثابت أن الشياطين قبل بعثة سيدنا محمد ﷺ كانت ترمى أحيانـًا، وأحيانـًا لا ترمى، وبعد البعثة تعرضوا للرمي من كل جانب، وزيد في حفظ السماء، فلم يتمكنوا من استراق السمع، إلا بأن يختطف أحدهم كلمة، فيتبعه شهاب ثاقب قبل أن ينزل إلى الأرض، فيلقيها إلى إخوانه، وبهذا بطلت الكهانة، وثبتت النبوة والرسالة، وأصبح المقرر شرعـًا منعهم من التنصّت(٢)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (٣)، وقال سبحانه وتعالى واصفـًا المرحلتين:﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ، فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَسـًا شَدِيداً وَشُهُبـًا، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهابـًا رَصَداً ﴾ (٤).

(١) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: إلا من استرق السمع، رقم (٤٧٠١)، ورواه الترمذي، سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م، كتاب تفسير القرآن، باب: من سورة سبأ، رقم (٣٢٢٣).

(٢) سورة الجن: ٨-٩.

(٣) سورة الشعراء: ٢١٢.

(٤) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤١٨هـ، ٢٣/ ٦٩.

قال ابن عباس: " كانت الجن يصعدون إلى السماء الدنيا يستمعون الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعـًا، فأما الكلمة فتكون حقـًا، وأما ما زادوا فيكون باطلاً، فلما بعث النبي ﷺ منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا إلا لأمر حدث في الأرض، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائمـًا يصلي، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذي حدث"(١).

وفي نهاية هذا المطلب أشير إلى أن الإمام الرازي ذهب إلى أن السماء تحفظ من الشياطين بالنجوم، وكذلك تحفظ بالملائكة، يقول رحمه الله: ثم هاهنا قولان: أحدهما: أنه محفوظ بالملائكة من الشياطين، والثاني: أنه محفوظ بالنجوم من الشياطين(٢).

المطلب الثالث: السقف المحفوظ من الهدم والنقض.

حفظ الله تبارك وتعالى السماء من الهدم والنقض والسقوط، وفي هذا دليل على عناية الله تبارك وتعالى بعباده ورعايته لهم، ولولا هذه العناية الربانية لسقطت السماء على الأرض، واصطدمت النجوم والكواكب بالأرض واستحالت الحياة.

يقول الإمام القرطبي: "أي محفوظـًا من أن يقع ويسقط على الأرض... وقيل: محفوظـًا من الهدم والنقض"(٣).

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، المحقق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م،١٩/ ٥٠٠.

(٢) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ هـ، ٢٢/ ١٤٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن فرح الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٤ م، ١١/ ٢٨٥.

ويقول الإمام القاسمي: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا﴾ "أي على الأرض كالقبة عليها مَحْفُوظًا أي عاليًا محروسًا، أن ينال أو محفوظًا من التغير بالمؤثرات، مهما تطاول الزمان"(١).

والآيات القرآنية الدالة على حفظ السماء من الهدم والسقوط عديدة، منها قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (٢)، وقوله تعالى:(ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره)(٣)، وقال تعالى: ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا﴾(٤).

وهذا ما ذهب إليه كثير من المفسرين، قال الإمام الرازي: إنه محفوظ من الوقوع والسقوط اللذين يجري مثلهما على سائر السقوف(٥)، قال الزجاج: حفظه من الوقوع على الأرض إلا بإذنه(٦).

المطلب الرابع: السقف المحفوظ بمعنى الحافظ.

من المقرر عند النحاة أن اسم الفاعل يستعمل بمعنى اسم المفعول والعكس أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿من ماء دافق﴾ (٧)، فيقولون: دافق بمعنى مدفوق، وقوله عز

(١) محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد القاسمي، ٧/ ١٩٢، وانظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، المحقق: الإمام أبو محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢ م، ٦/ ٢٧٤.

(٢) سورة الحج: ٦٥.

(٣) سورة الروم: ٢٥.

(٤) سورة فاطر: ٤١.

(٥) التفسير الكبير للرازي، ٢٢/ ١٤٠.

(٦) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م، ٣/ ٢٣٦.

(٧) سورة الطارق: ٦.

وجلّ: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله﴾ (١)، بمعنى لا معصوم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿عيشة راضية﴾ (٢)، بمعنى مرضية، وقوله تعالى: ﴿حجاباً مستوراً﴾(٣)، بمعنى ساتراً، وكذلك هنا في قوله تعالى:﴿ سقفاً محفوظاً﴾ بمعنى حافظاً.

يقول الإمام الفراهيدي: "حفظ يحفظ حفظاً فهو حافظ من اسم الفاعل، ومحفوظ من اسم المفعول، والحفظ يعني التعاهد والحراسة والمراقبة والرعاية(٤).

وقال الإمام الألوسي: " ﴿وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً ﴾ من البلى والتغير على طول الدهر كما روي عن قتادة، والمراد أنها جعلت محفوظة عن ذلك الدهر الطويل...وقيل: إنه للدلالة على حفظها عمن تحتها ويدل على حفظها عنهم على أتم وجه"(٥).

ومن البدهيات كذلك أن السقف المحفوظ لا بد أن يكون حافظاً، لأن السقف بطبيعته يكون حافظاً لغيره.

وإذا كان المفسرون - رحمهم الله تعالى جميعاً – قد توسعوا في تفسير (سقفاً محفوظاً) على النحو الذي أوردنا، فقالوا:

- سقفاً محفوظاً من الشرك.
- سقفاً محفوظاً من الشياطين بالنجوم.
- سقفاً محفوظاً من الهدم والنقض والسقوط، وغير ذلك من المعاني التي

(١) سورة هود: ٤٣.

(٢) سورة الحاقة: ٢١.

(٣) سورة الإسراء: ٤٥.

(٤) كتاب العين للفراهيدي، ٣/ ١٩٨.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، المحقق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ، ٩/ ٣٨.

أوردوها، فيمكن لنا في ضوء العلم المعاصر، بل الحقائق العلمية وليس الفرضيات اليوم، أن نزيد في فهم معاني القرآن الكريم، ونتوسع في مدلولاته الكريمة، وذلك استناداً على قواعد اللغة الصحيحة وما ذهب إليه المفسرون، ويتسنى لنا أن نزيد في تفسير قوله تعالى: ﴿سقفًا محفوظًا﴾ بمعنى حافظًا، معنى آخر هو: السقف المحفوظ بالغلاف الجوي والغلاف المغناطيسي للأرض.

وذلك لما أسلفنا أن المفسرين وعلماء اللغة يستخدمون اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول "محفوظ بمعنى حافظ"، بالإضافة إلى أن تعريف السماء – كما مرّ معنا – كل ما علا وسما فوق رؤوسنا فهو سماء، وبالتالي فإن الغلافين الجوي والمغناطيسي للكرة الأرضية هما جزء من السماء فوقنا، وهما يعدان سقفًا محفوظًا من السقوط بقوانين علمية كقوى الجاذبية التي وضعها الخالق تبارك وتعالى وغيرها – والتي سنتحدث عنها في المبحث القادم بعون الله تعالى – وكذلك يعدان سقفًا حافظًا لنا من أخطار وأضرار جسيمة سنشير إلى بعضها تباعًا، ولا يعني هذا أن يكون السقف عاصمًا من كل سوء، فالغلاف الجوي يحمي الكائنات الحية – كما سنرى – من أخطار كثيرة، ولولا أن الله تبارك وتعالى خلقه لنا لاستحالت الحياة على الأرض، لكن قد يصل إلى الأرض أحيانًا أجزاء من النيازك وما أشبه ذلك، فهو حافظ بإذن الله تعالى وليس عاصمًا(١).

السقف المحفوظ بالغلاف الجوي والغلاف المغناطيسي للأرض.

أولاً: الغلاف الجوي للأرض: هو جزء أساسي من الأرض، ومركب من مجموعة من الغازات، التي تشكل مع بعضها الغلاف الجوي للأرض، ولا يمكن أن تكون هناك

(١) انظر: مدخل إلى علم المناخ والجغرافيا الطبيعية، د. ضاري ناصر العجمي، ود. محمود صفر، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ص٢٩.

حياة دون الغلاف الجوي، الذي يقي الكرة الأرضية من الأشعة الضارة والمحرقة، ومن الشهب والنيازك المدمرة، كما أن النشاط المناخي كالمطر والسحب وغيرها تكون فيه(١):

فوائد الغلاف الجوي للأرض.

حتى يتجسد معنى "السقف المحفوظ" في قوله تعالى:﴿سقفًا محفوظًا﴾ نورد بعض فوائد الغلاف الجوي للأرض لنرى كيف جعله الحق سبحانه وتعالى حافظًا لها.

الغلاف الجوي يعدّل ويلطف مستويات الحرارة القصوى من ساخنة أو باردة، فيعمل كسقف حافظ، ويقلل من تغيرات مستوى الحرارة بين الليل والنهار، أو بين الصيف والشتاء، عند النهار تسخن الشمس سطح الأرض وتنقل هذه الحرارة إلى الجو، حيث تخزن وتقي من البرد الشديد عندما تغيب الشمس، وبالعكس يقي الغلاف الجوي عند النهار من الحرارة الشديدة بامتصاصه قسمًا من أشعة الشمس، ويقي الجو سطح الأرض من قصف النيازك، إذ يقدر أن الأرض تتلقى كل يوم ما يقارب المائة ألف مليون نيزك من مختلف الأحجام، إنما لا تدرك سطحها لأنها تحترق في الجو بسبب الحرارة التي يولدها احتكاك النيزك بالغلاف الجوي(٢).

كذلك لو قدر الله سبحانه وتعالى انعدام الغلاف الجوي للأرض، لانعدمت الحياة على سطحها، ليس فقط لعدم وجود الأكسجين اللازم للتنفس، ولكن لسقوط النيازك

---

(١) التغير المناخي في الميزان، د. إبراهيم العرود، منشورات وزارة الثقافة، عّمان، ٢٠٠١، ص٣٦- ٣٧، وانظر: الأرصاد الجوية ونظرة إلى المستقبل، د. حسين زهدي، مركز الأهرام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص١٣.

(٢) المنظومة الشمسية، سمير عازار، ص٦٢، وانظر: العلوم الجوية وتطبيقاتها، د. محمد أحمد الشهاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، ص٥٠.

بكميات هائلة، وبكتل كبيرة تهشم رؤوس الأحياء، وتنهي بذلك جميع صور الحياة على سطح الكرة الأرضية، هذا بخلاف امتصاص غلاف الجو العلوي للأشعة الضارة بل القاتلة للأحياء، مثل الأشعة فوق البنفسجية، والذي نود أن ننوه إليه أنه بدون الغلاف الجوي لا ينتقل الصوت من مكان إلى آخر، ويكون بذلك قد فقدت الأحياء حاسة السمع التي منحها الله(١).

ثانيـًا: الغلاف المغناطيسى للأرض:

بعد دراسة المعلومات التى حصلت عليها الأقمار الصناعية اكسبلورار ١ ٢.٣ ٤ توصل العالم "جيمس فان الن" في عام ١٩٥٨ م إلى أن الأيونوسفير مغلفة بحزامين مغناطيسيين يبدأ الأول عند ارتفاع ٧٧٥ إلى ١٠٠٠ كلم و ينتهى أعلاه عند ١٣٠٠٠ كلم،كما يبدأ الحزام الثاني عند ارتفاع ١٣٠٠٠ إلى ٦٥٠٠٠ كلم، حيث تبين له فيما بعد وبعد دراسات مستفيضة أن الحزامين عبارة عن حزام واحد يعرف اليوم بالغلاف المغناطيسى الأرضى"Magnetosphere" أو "حزام فان Van Alen Belt"(٢).

فوائد الغلاف المغناطيسى للأرض.

يعمل الغلاف المغناطيسى بإرادة الله سبحانه وتعالى على حماية الأرض من الرياح الشمسية القادمة من الشمس، بالإضافة إلى حمايتها من الجسيمات المشحونة العالية الطاقة من الأشعة الكونية القادمة من الفضاء الخارجى، حيث يعمل على حرف وتغيّر مسارات هذه الأشعة بعيداً عن الأرض، بالإضافة إلى حرف هذه الجسيمات فإن الغلاف المغناطيسي يتفاعل بعض الأحيان مع بعض الجسيمات المشحونة القادمة من

(١) المجموعة الشمسية واحتمالات الحياة عليها، زين العابدين متولي، القاهرة، مركز جامعة القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧ ص٤٢.

(٢) انظر: الظواهر الكونية في القرآن الكريم، د. مروان شعبان، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠١١، ص ٣٣٠.

الشمس ويدفعها عبر خطوط القوي المغناطيسية باتجاه القطبين، مشكلةً التشكيلات الضوئية الجميلة المعروفة باسم الشفق القطبى Aurora والتى يكثر حدوثها في فترات النشاط الشمسى(١).

إن الأرض تملك كثافة أعلى من كل ما تملكه باقى الكواكب في النظام الشمسى، وهذا القلب العظيم للأرض المكون من الحديد والنيكل هو المسؤول عن الحقل المغناطيسى الكبير، وهذا الحقل المغناطيسى هو الذي ينتج عنه درع من إشعاعات "فان ألن" الذي يحمى الأرض من الانفجارات الإشعاعية، ولو لم يكن هذا الدرع موجوداً لما كانت الحياة ممكنة على سطح الأرض، ولا يملك مثل هذا الدرع سوى الأرض وكوكب المريخ الصخري، ولكن قوة حقله المغناطيسى أقل بمائة مرة من قوة الحقل الأرض المغناطيسى، وحتى كوكب الزهرة المشابه لكوكبنا ليس لديه حقل مغناطيسى، إن درع "فان ألن" الإشعاعى هو خلق بديع خاص بالأرض.

وحين ننتقل بالحديث عن الأرض نجدها ملائمة تماماً للحياة البشرية، لأننا عندما ننفذ من الغلاف الجوي إلى الفضاء الخارجى نصادف فيه برودة شديدة تصل ٢٧٠ درجة تحت الصفر، حمى الله الأرض منها بما هيئه لها من الغلاف الجوي، كما أن الطاقة التى تنتجها الشمس تتفجر كقنبلة هائلة يصعب على العقل البشري تصور مداها، فانفجار واحد يساوي مائة بليون قنبلة ذرية مشابهة لتلك التى ألقيت على مدينة هيروشيما، إن العالم محمى من الآثار الهدامة لمثل هذه الطاقة بفضل الغلاف الجوي وحزام فان ألن(٢).

بهذه القوانين الربانية جعل الله تبارك وتعالى الغلاف الجوي والغلاف المغناطيسي

---

(١) المصدر السابق، ص٣٣١.

(٢) معجزة القرآن الكريم، تأليف هارون يحيى، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ص١٢٦.

للكرة الأرضية، بمثابة السقف الحافظ لنا من كل عوامل الهلاك والدمار، وهذه آية واضحة على عظيم عناية الله تبارك وتعالى ورعايته لخلقه...

المبحث الثاني: السقف المرفوع في القرآن الكريم.

رفع الله تبارك وتعالى السماء وجعلها كالسقف للأرض، وفي ذلك كمال الحكمة وتمام الرحمة بالخلق، وإشارة جلية إلى بيان عظمة الخالق وطلاقة قدرته عز وجل، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (١).

قال شيخ المفسرين الإمام الطبري: قوله: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يعني بالسقف في هذا الموضع: السماء، وجعلها سقفًا، لأنها سماء للأرض، كسماء البيت الذي هو سقفه(٢).

وفي التفسير الوسيط للقرآن الكريم: يقسم الله تعالى بالسقف المرفوع وهو السماء كما رواه جماعة وصحّحه الحاكم عن علي كرم الله وجهه وبه قال سفيان(٣).

وهكذا قال معظم المفسرين، ومنهم من فسّره بأنه عرش الرحمن، قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه السماء، قاله عليّ رضي الله عنه والجمهور، والثاني: العرش، قاله الربيع(٤).

من خلال دراسة موضوعية للآيات القرآنية التي تتحدث عن رفع السماء، نستطيع أن نجلي الموضوع ضمن العناصر التالية.

---

(١) سورة الرحمن: ٧.

(٢) جامع البيان للطبري، ٢٢/ ٤٥٧.

(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ٩/ ١١١٦.

(٤) زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد الجوزي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٢ هـ، ٤/ ١٧٦.

١- السقف المرفوع متماسك ومحكم.

٢- السقف المرفوع مبني بغير أعمدة مرئية في أحد القولين.

٣- السقف المرفوع محبوك بدقة عالية.

المطلب الأول: السقف المرفوع متماسك ومحكم.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا فاطر﴾(١).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ الحج﴾(٢).

تشير الآيتان الكريمتان إلى قدرة الخالق تبارك وتعالى وعظمته في إمساك السموات والأرض، وحفظه لهما بنظام كوني دقيق، فهذه السموات بما تحتويه من أجرام متنوعة كلها تسبح في مساراتها، وتدور في أفلاكها لا تختل ولا تحيد عنها، وتجري ضمن نظام كوني بديع ينبض في كل جوانبه بالتسبيح والتمجيد للخالق العظيم.

يقول الحافظ ابن كثير: ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ أي: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾ أي: مع ظلمهم(٣).

إن من مظاهر قدرة الله تعالى الجلية التي لا تنكرها عين، ولا يجحدها عقل، إمساك الله السموات والأرض وحفظهما ومنعهما أن تنهدّا، أو تغيرا مسيرتهما زمانًا أو مكانًا؛

---

(١) سورة فاطر: ٤١.

(٢) سورة الحج: ٦٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٥/ ٤٥١.

فإن الممكن حال بقائه لا بد له من حافظ يحفظه، ولا يكون ذلك إلاَّ دائم الوجود سبحانه وتعالى ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا﴾ أَي: ولئن أَشرفتا على الزوال بشرك هؤلاء المشركين ما أَمسكهما من أَحد بعد الله كائنا من كان، أَو بعد زوالهما.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ معناه: إن الله تعالى عظيم الحلم واسع العفو، ومن جملة ذلك حلمه تعالى على المشركين، وتوبته على من تاب منهم مع عظم جرمهم المقتضى لتعجيل العقوبة لهم، وعدم إِمساك السموات والأَرض، وتخريب العالم الذي هم فيه، وكانتا جديرتين أن تهدا هدّاً؛ لشؤم معصيتهم(١) كما في قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾(٢).

ويشير الإمام البغوي إلى عجز الآية الكريمة معللاً سبب الحلم والمغفرة فيقول: (إنه كان حليماً غفوراً) قوله تعالى: إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، أي كيلا تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده، أي ما يمسكهما أحد من بعده، أي أحد سواه، إنه كان حليما غفورا، فإن قيل: فما معنى ذكر الحلم هاهنا؟ قيل: لأن السموات والأرض همت بما همت به من عقوبة الكفار فأمسكهما الله تعالى عن الزوال لحلمه وغفرانه أن يعاجلهم بالعقوبة(٣).

ويشير الإمام المراغي إلى جانب علمي في الآية فيقول: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾ أي إن الله يمنع السموات أن تضطرب من أماكنها، فترتفع أو تنخفض ويمنع الأرض من مثل ذلك، ويحفظهما برباط خاص، وهو ما يسميه العلماء نظام الجاذبية، فجميع العوالم من الأرض والقمر والشمس والسيارات الأخرى تجرى

(١) انظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ٨/ ٣٣٥.

(٢) سورة مريم: ٩٠.

(٣) معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي، ٣/ ٧٠٠.

في مدارات خاصة بهذا النظام الذي وضع لها، ولولا ذلك لتحطمت هذه الكرات المشاهدة، وزالت عن أماكنها، لكنها به ثبتت في مواضعها، واستقرت في مداراتها (١).

وعطفًا على ما سبق من أقوال المفسرين، فإن الدراسات الفلكية المعاصرة تتحدث عن العوامل التي جعلها الله عز وجل سببًا للإمساك بالسماء، ومن هذه العوامل:

١- **الجاذبية:** فالجاذبية تمسك بمختلف أجرام السماء الدنيا على الأقل، وتجمعاتها من الكواكب وأقمارها، والنجوم وتوابعها، وتجمعاتها على كل المستويات إلى نهاية لا يعلمها إلا الله، ولولا هذا الرباط المحكم الذي أوجده الخالق سبحانه وتعالى لانفرط عقد الكون.

السماء مليئة بأجسام مضيئة ذات حجوم وأبعاد مختلفة، بعضها يبدو كأنه ثابت لا يتحرك وبعضها يتحرك حركة بطيئة جداً، كذلك تتفاوت هذه الأجرام السماوية في درجة إضاءتها، فبعضها يتلألأ والآخر يرسل ضوءاً خافتًا، والنجوم هي أكبر الأجرام الرئيسية في الكون، فحولها تدور الكواكب والأقمار والمذنبات والكويكبات وغيرها، وشمسنا التي ينبعث منها الدفء والطاقة والنور ما هي إلا نجم عادي مثل سائر النجوم التي نراها في السماء، لكنها قريبة منا بالقياس مع النجوم الأخرى، وكلها متماسكة مترابطة بقوى الجاذبية، وقوة الجاذبية هي التي تجعل الشمس تمسك بالأرض فتدور حولها، وهي التي جعلت الشمس تمسك بعطارد والزهرة وكل كواكب المجموعة الشمسية، وجعلتها جميعًا حول الشمس تدور..

إن قوانين الحركة، وقانون الجاذبية التي تحكم الكواكب جميعًا، قضى الله بأن

(١) تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى: ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م، ٢٢/ ١٣٧.

تكون مداراتها بيضاوية، وقد حلّت الشمس في مدارات هذه الكواكب السيارة في أخذ مركزها، إنها كرات تدور في أفلاكها وتدور حول نفسها كما تدور الأرض، وهي في مداراتها تدور حول الشمس، ولكل كوكب من الكواكب السيارة بعدٌ عن الشمس يختلف عن بعد أخيه، فله مدار يختلف ضِيْقًا وسعة عن مدار أخيه، وهو يقطع المدار يقطع الدورة الواحدة في زمن دوري ثابت يختلف عن زمن أخيه، ويكشف الحساب عن علاقة بين أبعاد الكواكب وأزمنة دورانها، علاقة تتضمّن نسقًا كاد أن يكون واحداً بقوى الجاذبية التي جعلها الله تبارك وتعالى سببًا في ذلك.(١)

٢- البروج بنجومها جند مسخرة للإمساك بأطراف السماء الدنيا:

إن البروج (وهي تجمعات نجمية حاشدة) بنجومها وباقي أجرامها، والأجرام بمواقعها وكتلها جند مسخرة من قبل الله تعالى للإمساك بأطراف السماء الدنيا، على الرغم من المسافات الشاسعة التي تفصلها، فهي مرتبطة مع بعضها بالاتزان الدقيق بين قوى الجاذبية والقوى الطاردة المركزية، على الرغم من تحركها بسرعات مذهلة في صفحة السماء، وفي حركات عديدة معقدة تشهد لله الخالق العظيم بطلاقة القدرة وبديع الصنعة(٢).

المطلب الثاني: السقف المرفوع مبني بغير أعمدة مرئية.

هناك العديد من الآيات القرآنية التي تتحدث عن دقة بناء السماء، وأنها مبنية على أعمدة، وذلك من باب تحصيل الحاصل في المنظور البشري، لأن أيّ بناء يفتقر إلى أعمدة يرتكز عليها ويشتد بها، والله تبارك وتعالى رفع السماء بغير عمد، وفي ذلك دليل على طلاقة القدرة الربانية، وعظيم الإبداع والصنعة الإلهية، وحجة ساطعة على أن ما

(١) مع الله في السماء، د. أحمد زكي، ص١٢٢، والكون بداية ونهاية د. محمد الجزار مركز الكتاب للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص١٨.

(٢) السماء في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الأولى، ص ٣٨٩.

في هذا الكون من دقة وتناسق، وتماسك وبناء محكم، إنما هو من إبداع الحكيم العليم تبارك وتعالى...

وقد وردت آيات كثيرة تدل على بناء السماء وأعمدتها ورفعها منها:

- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١).

- ﴿ اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢).

- ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٣).

- ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (٤).

- ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا﴾ (٥).

- ﴿وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا﴾ (٦).

هذا عن بناء السماء، وأما عن رفع السماء بغير عمد فهناك آيتان كريمتان في ذلك هما:

قوله تعالى: ﴿ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (٧).

---

(١) سورة البقرة: ٢٢.

(٢) سورة غافر: ٦٤.

(٣) سورة الذاريات: ٤٧.

(٤) سورة ق: ٦.

(٥) سورة النازعات:

(٦) سورة الشمس: ٥.

(٧) سورة الرعد: ٢.

وقوله عز وجل: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾(١).

وقد ذهب المفسرون في تفسير رفع السماء بغير عمد إلى قولين:

القول الأول: أن الله تبارك وتعالى رفع السماء بغير عمد.

القول الثاني: أن الله تبارك وتعالى رفع السماء بغير أعمدة مرئية، فقالوا: لها عَمَد ولكن لا ترى.

وهذه بعض أقوال المفسرين في الاتجاهين، يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: "يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه، أنه الذي بإذنه وأمره رَفَع السماوات بغير عمَد، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بُعدًا لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء...وقوله: ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ روي عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة: أنهم: قالوا: لها عَمَد ولكن لا ترى، وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد، وكذا روي عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق...فعلى هذا يكون قوله تعالى:﴿ ترونها ﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، هذا هو الأكمل في القدرة"(٢).

ويقول الإمام الرازي في تفسيره الكبير: "السموات ليست في مكان تعتمد عليه فلا عمد لها وقوله:﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه راجع إلى السموات أي ليست هي

(١) سورة لقمان: ١٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٤/ ٤٣٠.

بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد، والثاني: أنه راجع إلى العمد أي بغير عمد مرئية، وإن كان هناك عمد غير مرئية فهي قدرة الله وإرادته"(١).

ويقول البخاري القنّوجي في تفسيره "فتح البيان": قوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه راجع إلى السموات، أي ليست هي بعمد، وأنتم ترونها كذلك بغير عمد، الوجه الثاني: أنه راجع إلى العمد، ومعناه بغير عمد مرئية، فيمكن أن تكون ثَمَّ عمد ولكن لا ترى(٢).

وأشار ابن عرفة إلى سبب إفراد السماء في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وإنا لموسعون﴾ (٣)، فقال: هذا برهان ودليل بعد الوعظ والتخويف، فإن قلت: لم أفرد السماء والمناسب باعتبار الفهم الجمع، لأنه إذا كان خلق السماوات بقوة فأحرى السماء الواحدة، قلت: الآية إنما سيقت لبيان أن الله تعالى خلق السموات والأرض، وأن ذلك دليل على كمال اتصافه بالقدرة والقوة الشديدة، فإذا كان خلق السماء الواحدة دليلاً على اتصافه بالقوة الشديدة، فأحرى أن يدل على ذلك خلق السماوات كلها(٤).

إذن هناك اتجاهان: نفي العمد، ووجود العمد ونفي رؤيتها:

يقول الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى:

الاتجاه الأول: أن النفي متجه إلى وجود العمد، وقوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ دليل على نفي وجود العدم، أي دليل على عدم وجودها عدم رؤيتكم لها، فالله سبحانه وتعالى

(١)التفسير الكبير للرازي، ١٢/ ٢٦٤.

(٢) فتح البيان للقنوجي، ١٠/ ٢٧٩.

(٣) سورة الذاريات: ٤٧.

(٤) تفسير ابن عرفة، محمد بن عرفة الورغمي التونسي المالكي، المحقق: جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨ م، ٤/ ٧٢.

أنشأ السماوات كالقبة المحيطة بالأرض من كل أطرافها، من غير عمد قائمة.

الاتجاه الثاني: أن النفي واقع على الرؤية، وعلى هذا يكون هناك عمد، ولكن لَا ترى، فالله سبحانه وتعالى قد أوجد تماسكا بين السماء والأرض بالجاذبية، وكأنها عمد ولكنها لَا ترى، وهذه الجاذبية كأنها العمد التي لَا ترى. والاتجاهان يحتملهما اللفظ، وهما صادقان، وأميل إلى الاتجاه الثاني، ورجح ابن كثير الاتجاه الأول، وكلاهما فيه قدرة الله تعالى الجلية واضحة(١).

وبما أن الأمر فيه سعة بين المفسرين القدامى والمعاصرين، وفيه أكثر من توجه، فإنا كذلك نميل إلى ما ذهب إليه من قال: السماء لها أعمدة لكن لا ترى، وهذا أثبتته الدراسات المعاصرة.

يقول علماء الفلك: إن الكون ليس مجالاً للفوضى، وأن كل شيء منسق ومرتب ومنظم بدقة عجيبة، ولن نجد مجرة شاردة أو أخرى تسبح على غير هدى، أو ثالثة تصدم بمجرة مجاورة، تماماً كما تنتظم ملايين النجوم في مواقع لها داخل كل مجرة في نظام دقيق...

ويعتقد العلماء أن كل مجموعة تشكل جزءاً أكبر منها، وكل تجمع يعد جانباً من الحشد الفائق الأعلى منه، كما أن هناك تجمعات أخرى لا أحد يعرف سرها، ولا تستطيع مجرة مهما كان حجمها أن تفلت من هذا النظام أو تخرج من جاذبية المجموعة، إلا إذا كانت هناك جاذبية أكبر منها وتشدها، وقد تلتحم مجرتان معاً ولكن دون أن تصدما، أي تتداخلان حيث يوفق كل نجم فيهما أوضاعه مع جاذبية النجوم القريبة الأخرى وتصبحان مجرة واحدة بعد ذلك(٢).

---

(١) زهرة التفاسير، محمد بن أحمد المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي – القاهرة، د.ت، ٧/ ٣٨٩١.

(٢) الكون ذلك المجهول، جلال عبد الفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٧٣.

من هنا فإن الحق عز وجل جعل مواقع النجوم والأجرام السماوية الأخرى موضوعة في الخريطة الكونية على أبعاد ثابتة بين بعضها، بصورة تضمن عدم السقوط والتصادم والاضطراب في الأفلاك إلا بإذنه جل جلاله...

والحق تبارك وتعالى جعل المعادلة قائمة على أساس قانون طردي هو (قوى التجاذب = طاقة الحركة) ولو كان أحد طرفي المعادلة على شكل غير هذا لسقطت السماء على الأرض، أي لسقطت النجوم والكواكب التي في السماء على الأرض، واصطدمت النجوم والكواكب ببعضها، وإذا حدث العكس أي لو قلّت قوى التجاذب عن طاقة الحركة لتباعدت الأجرام السماوية بالانفلات من أفلاكها حول شموسها، ولسارت على غير هدى حتى تصطدم بمجموعات نجمية وكوكبية انفلتت هي الأخرى من أفلاكها المحددة لها، وبذلك حفظت من السقوط والتصادم...

إن النصوص القرآنية التي تتحدث عن رفع السماء بأعمدة غير مرئية، تُصدِّق ما وصل إليه علماء عصرنا من أن الأجرام السماوية قائمة بغير عمد مرئي، الأعمدة قائمة ولكنا لا نراها ﴿ بغير عمد ترونها ﴾ وهي ليست أعمدة من صخر وحديد، وليست أعمدة مادية على الإطلاق، إنها أعمدة الجاذبية التي سخرها الله تبارك وتعالى وفق القانون العام للكون، ليظل كل جرم وكل شيء في أبعاد متساوية من بعضها، وكأنها مقامة فوق عمد لا ترونها، إنها حقائق مذهلة نجدها في القرآن الكريم، فهل كان صاحب الرسالة العصماء، ذلك النبي الأمي عالماً من علماء الفلك والرياضيات والفيزياء الكونية ؟؟ الحق أنه لا سبيل للجدال، وليس أمام البشر كل البشر إلا التسليم بأنه وحي من عند الخالق العظيم جل جلاله[1].

وقوة الجاذبية قوة جبارة تعمل على مسك أجرام السماء بعضها ببعض كي لا

(١) انظر: الظواهر الكونية في القرآن الكريم، د. مروان شعبان، ٣٦١.

ينفرط عقدها، والسماوات هي مجموع الأجرام التي حولنا من نجوم وكواكب وأقمار وغيرها، ورفعها بغير عمد ترونها – والعمود هو دعامة تحمل فوقها ثقلاً – أي بعماد من القوى لا تراها أعينكم، لا تراها بالرغم من أنها أضخم وأقوى ما في الوجود، فتأمل أيها الإنسان هذه الأعمدة التي تدعم وتحمل كل هذه الشموس والكواكب التي لا حصر لها والتي يزيد حجمها عن أرضنا ملايين ملايين المرات، وتأمّل القوة التي تمسك النجوم الهائلة والكواكب العديدة التي لا حصر لها، ولا يتصور العقل وزنها، وتربطها ببعضها بعضاً ثم تأمّل هذه المسافات الشاسعة التي تمتد إليها هذه القوة فلا تضعف ولا تعجز عن حمل هذه الأثقال، تعرف قوة الله قدرته تبارك وتعالى(١).

المطلب الثالث: السقف المرفوع محبوك بدقة عالية.

قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾(٢).

هذا هو القسم السابع من سورة الذاريات، حيث أقسم الحق عز وجل ببعض الظواهر الكونية ومنها: السماء ذات الحبك، وبالرجوع إلى المفسرين وأصحاب المعاجم للكشف والتوضيح عن معنى حبك السماء، نجد أن مدلول الآية المباركة اتسعت لأربعة هي:

أحدها: ذات الخَلْق الحَسَن، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة.

والثاني: البُنيان المُتْقَن، قاله مجاهد.

والثالث: ذات الزِّينة، قاله سعيد بن جبير، وقال الحسن: حُبُكها نُجومها.

والرابع: ذات الطرائق، قاله الضحاك واللغويون، وقال الفراء: الحُبُك: تَكَسُّر كلِّ شيء كالرَّمْل إذا مَرَّت به الرِّيح السّاكنة، والماء القائم إذا مَرّت به الرِّيح، والشَّعرةُ

(١) تكنولوجيا الفضاء الكوني، د. عبد العليم خضر الدار السعودية، جدة، ط(١) ١٩٩٣، ص ٦٢.

(٢) سورة الذاريات: ٧.

الجَعْدَة تكسُّرُها حُبُك، وواحد الحُبُك: حِباك وحَبِيكة، وقال الزجاج: أهل اللغة يقولون: الحُبُك الطرَّائق الحَسَنة، والمَحْبُوك في اللغة: ما أُجيد عملُه، وكل ما تراه من الطَّرائق في الماء وفي الرَّمْل إذا أصابته الرِّيح فهو حُبُك(١).

جاء في تفسير الطبري ما أوردناه آنفاً: يقول تعالى ذكره: "والسماء ذات الخَلْق الحسن، وعنى بقوله تبارك وتعالى: ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾: ذات الطرائق، وتكسير كل شيء: حُبُكُه، وهو جمع حِباك وحَبيكة؛ يقال لتكسير الشعرة الجعدة: حُبك؛ وللرملة إذا مرّت بها الريح الساكنة، والماء القائم، والدرع من الحديد لها: حُبُك"(٢).

ويضيف الإمام النيسابوري في تفسيره معنى آخر هو الصفاقة فيقول: "قال الحسن: حبكها نجومها لأنها تزينها كما تزين الموشيّ يكون بطرائق الوشي، وقيل: حبكها صفاقتها وإحكامها يقال للثوب الصفيق « ما أحسن حبكه »"(٣).

وفي المعاجم اللغوية نجد هذه المعاني تقريباً حول حبك السماء، ففي مختار الصحاح للرازي: "الحِبَاك والحَبِيكة: الطريقة في الرَّمْل ونحوه، وجَمْع الحِباك حُبُك، وجَمْع الحَبِيكة حَبَائِك، وقوله تعالى: ﴿والسماء ذات الحُبُك﴾ قالوا: طرائق النُّجُوم"(٤).

إذن نستنتج مما سلف أن القسم بالسماء ذات الحبك، يتسع لهذه المعاني كلها، وكلمات القرآن الكريم كما نعلم حمّالة لوجوه متعددة، لأن اللفظ الواحد يشترك في

(١) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ، ٥/ ٤١٩.

(٢) جامع البيان للطبري، ٢٢/ ٣٩٤.

(٣) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري تحقيق، زكريا عميرات، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦، ٧/ ٦١.

(٤) مختار الصحاح للرازي، ١/ ٥٩.

أكثر من معنى، وهنا يشترك لفظ الحبك في هذه المعاني.

ولا أريد أن أفصّل في هذه المعاني كلها، إنما أود أن أقتصر هنا على معنى: السماء ذات البنيان المحكم المترابط.

السماء ذات الربط والنسيج الكوني المحكم.

كل جسم في هذ الكون يشترك مع غيره من الأجسام في الشد المحكم المنضبط، وفي السماء هناك روابط تربط الكواكب والنجوم ببعضها وتشدها إلى بعضها، وإذا بها قد انضبطت مساراتها وأفلاكها، وقد أشار العلماء إلى أهم هذه الروابط أو القوى التي تشد المكوّنات إلى بعضها وهي قوة الجاذبية:

إن قوى الجاذبية تعمل على إحكام تماسكها وتماسك كل من أجرامها، وكل صور المادة والطاقة فيها بشدة، كما تعمل هذه القوة على تماسك وترابط أفراد أجزاء الكون بشكل منضبط ومحكم، وهي من جنود الله تعالى التي تمارس دورها ووظيفتها التي إن تخلّت عنها انهار الكون وتناثر، ولكن الحق عز وجل جعلها سبباً لترابط أجزاء الكون وإحكامه، وهذه إضاءة من نور قول الله تبارك وتعالى: ﴿السماء ذات الحبك﴾ أي ذات الترابط المحكم والنسيج الكوني المتماسك الدقيق، من أصغر أجزاء الذرة إلى أضخم أنواع المجرة.

والعجيب أن النسيج الكوني قد نسج بخيوط سماها علماء الفلك بالأوتار الكونية "Cosmic – Strings" ففي عام ١٩٨٥ طرح الفيزيائي إدوارد ويتن الذي يعمل في جامعة برنستون في الولايات المتحدة فرضية علمية غاية في الإثارة، وهي (الأوتار الكونية) التي هي عبارة عن تركيزات طويلة من الطاقة تشبه الخيوط وهي ثقيلة جداً وليس لها نهايات، بمعنى أنها عبارة عن حلقات مقفلة، وقد كشفت الحسابات أن كيلومتراً واحداً من الوتر الكوني يبلغ وزن الأرض ثقلاً، والذرة الواحدة من الوتر لها حجم يساوي ملياراً من الأطنان، لكن المفارقة أن العلماء يقدرون أن هذه الأوتار تبلغ

من النحافة بما يقدر بجزء من المليون تريليون تريليون من السنتميتر(١).

إذن هي أوتار طويلة وثقيلة جداً ولا يمكن رؤيتها على الإطلاق، ويرى إدوارد ويتن أن هذه الأوتار الكونية كان لها الدور الحاسم في تكوين المجرات، حيث إنها تلتف وتتقاطع إحداها مع الأخرى وأثناء تحركها في الكون تنكسر إلى حلقات مقفولة مكوّنة بذوراً جذبوية لتشكيل المجرات...

ثم توصل العلماء إلى صحة ما ذهب إليه إدوارد ويتن بأدلة حاسمة على وجود هذه الأوتار، من هذه الأدلة تأثير الأوتار الكونية على رؤية بعض المجرات، حيث إنه إذا وقع الوتر الكوني بين مجرة ومشاهد على الأرض فإنه سيرى صورتين متطابقتين لتلك المجرة، وقد شوهدت بالفعل أزواج عديدة من صور متطابقة لكوازارات(٢)، الأمر الذي يؤكد أن كل زوج هو لكوازر واحد(٣).

إذن الأوتار الكونية هي التي أسهمت بشكل أساسي في تشكيل المجرات الكونية، وكانت بمثابة أربطة وخيوط دقيقة للغاية تربط أجزاء الكون برمّته، وما أروع ما أشار إليه القرآن الكريم حيث قال: ﴿السماء ذات الحبك﴾...وهي خيوط غاية في الثقل والدقة إلى درجة أنها لا ترى، فهي أعمدة كونية غير مرئية...

وهذا ما أشار إليه الحق في آيات أخرى حيث قال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ

(١) انظر: الكون الأنيق، بريان غرين، ترجمة: د. عبد الحليم منصور، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ٢٠٠٥، ص ٢٩٥.

(٢)الكوازار: هو شبه النجم، وهو مصدر إشعاع خارج المجرة أبعد بكثير من المجرات العادية التي تعد بالمليارات، يبث حزمات قوية من موجات الراديو، تفيد هذه الموجات في بعض القياسات الهامة والدقيقة. انظر: الموسوعة الفلكية الحديثة، عماد مجاهد، المؤسسة العربية للنشر- عمّان، الطبعة الأولى: ٢٠٠٢، ص٢٩٢.

(٣) انظر: الكون الأنيق، بريان غرين، ترجمة: د. عبد الحليم منصور، ص ٢٩٦. وانظر: القرآن والكون، أسامة خضر، وزارة الثقافة، صنعاء، ط (١)، ٢٠٠٤، ص ٧٦٦.

كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾(٢)، فالسماء هي صفحة كونية، متماسكة الأجزاء، شديدة الترابط لا يوجد فيها شقوق ولا فطور ولا فروج.

(١) سورة ق: ٦.

(٢) سورة الملك: ٣.

الخاتمة

ختاماً فقد وفقني الله عز وجل إلى دراسة موضوعية قرآنية تحت عنوان: "السقف المحفوظ والسقف المرفوع في القرآن الكريم" عرّفت في بداية البحث أهم المصطلحات القرآنية مثل: السماء، السقف، المحفوظ، المرفوع.

المبحث الأول: السقف المحفوظ في القرآن الكريم: تحدثت فيه عن أربعة مطالب هي:

المطلب الأول: السقف المحفوظ من الشرك، حيث أوضحت أن الحق تبارك وتعالى حفظ السماء من شرك المشركين، بما أثبت لهم بطلاقة قدرته أنه خالق الأكوان ولا شريك له في ملكه، ولا معين له في تدبير شؤون الكون والخلق.

المطلب الثاني: السقف المحفوظ من الشياطين، حيث حفظ الله عز وجل السماء من الشياطين بالنجوم والشهب الثاقبة التي ترصد الشياطين وتمنعهم من استراق السمع.

المطلب الثالث: السقف المحفوظ من الهدم والنقض، فقد بيّنت من خلال الآيات الكريمة، أن الله تبارك وتعالى يمسك السماء أن تسقط على الأرض، وأوردت طرفاً من الدراسات في ذلك.

المطلب الرابع: السقف المحفوظ بمعنى الحافظ، أي إن الله سبحانه وتعالى خلق العديد من القوانين الكونية التي تسهم في حفظ الكائنات الحية التي تعيش على الأرض، مثل الغلاف الجوي والغلاف المغناطيسي للكرة الأرضية، وأوضحت آلية الحفظ في ذلك.

المبحث الثاني: السقف المرفوع في القرآن الكريم: تحدثت فيه عن ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: السقف المرفوع متماسك ومحكم، حيث أوضحت أن الحق

تبارك وتعالى جعل الأجرام السماوية متماسكة بشكل محكم، وأشرت إلى الأسباب التي أدت إلى هذا التماسك المحكم.

المطلب الثاني: السقف المرفوع مبني بغير أعمدة مرئية، حيث أوردت ما قاله السلف في هذه المسألة، وأشرت إلى أن هناك أعمدة كونية في السماء غير مرئية.

المطلب الثالث: السقف المرفوع محبوك بدقة عالية، فقد أوضحت أن السماء كالصفحة المتماسكة الأجزاء، المتينة الأطراف، وأنها محبوكة حبكًا متينًا، لا يرى الناظر فيها شقوقًا ولا فطوراً.

الجديد في هذه الدراسة: أحسب أن هذه الدراسة التي جمعت طرفي " السقف المحفوظ والسقف المرفوع" بشكل موضوعي متكامل، دراسة جديدة في عرضها وطرحها، وعسى أن تكون حلقة في سلسلة الدراسة الموضوعية القرآنية، التي تشكل ميدانًا خصبًا للباحثين.

وأخيراً أسأل الله عز وجل الإخلاص في القول والعمل، وأن يتقبل صالح الأعمال، ويغفر الخطايا والزلات، إنه جواد كريم، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم:

ثانيـًا: الكتب التالية:

١. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧ م.

٢. التغير المناخي في الميزان، د. إبراهيم العرود، منشورات وزارة الثقافة، عّمان، ٢٠٠١.

٣. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤١٨هـ.

٤. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن فرح الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة، الثانية، ١٩٦٤م.

٥. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن فرح الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٤ م.

٦. السماء في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الأولى.

٧. المجموعة الشمسية واحتمالات الحياة عليها، زين العابدين متولي، القاهرة، مركز جامعة القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧.

٨. المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ م.

٩. النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد الشهير بالماوردي، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية – بيروت.

١٠. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م.

١١. تفسير ابن عرفة، محمد بن عرفة الورغمي التونسي المالكي، المحقق: جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨ م.

١٢. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.

١٣. تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) محمد بن محمود، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

١٤. تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى: ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.

١٥. تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري تحقيق، زكريا عميرات، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦.

١٦. تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي، المحقق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٣ هـ.

١٧. تكنولوجيا الفضاء الكوني، د. عبد العليم خضر الدار السعودية، جدة، ط(١) ١٩٩٣.

١٨. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، المحقق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م.

١٩. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة – بيروت ودمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

٢٠. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، المحقق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

٢١. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد الجوزي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٢ هـ.

٢٢. زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.

٢٣. زهرة التفاسير، محمد بن أحمد المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي – القاهرة، د.ت.

٢٤. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٥. كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٢٦. لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن

منظور الأنصاري، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ هـ.

٢٧. مع الله في السماء، د. أحمد زكي، ص١٢٢، والكون بداية ونهاية د. محمد الجزار مركز الكتاب للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.

٢٨. معالم التنزيل في تفسير القرآن، محمد بن الفراء البغوي الشافعي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ.

٢٩. معجزة القرآن الكريم، تأليف هارون يحيى، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى.

٣٠. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

٣١. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ ه.

٣٢. الأرصاد الجوية ونظرة إلى المستقبل، د. حسين زهدي، مركز الأهرام، القاهرة، ط (١) ١٩٩٧.

٣٣. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م.

٣٤. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، المحقق: الشيخ محمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٣٥. سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك،

الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة، الطبعة الثانية.

٣٦. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري اليمني، المحقق: د حسين بن عبد الله العمري وآخرون، دار الفكر المعاصر بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٩ م.

٣٧. الظواهر الكونية في القرآن الكريم، د. مروان شعبان، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠١١.

٣٨. العلوم الجوية وتطبيقاتها، د. محمد أحمد الشهاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط(١) ٢٠٠٠.

٣٩. فتح القدير، محمد بن علي عبد الله الشوكاني، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ.

٤٠. القرآن والكون، أسامة خضر، وزارة الثقافة، صنعاء، ط (١)، ٢٠٠٤.

٤١. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

٤٢. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، المحقق: الإمام أبو محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢ م.

٤٣. الكون الأنيق، بريان غرين، ترجمة: د. عبد الحليم منصور، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ٢٠٠٥.

٤٤. محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد القاسمي، المحقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.

٤٥. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ ه.

٤٦. مدخل إلى علم المناخ والجغرافيا الطبيعية، د. ضاري ناصر العجمي، ود. محمود صفر، مكتبة الفلاح، الكويت، ط (١)١٩٨٧.

٤٧. الموسوعة الفلكية الحديثة، عماد مجاهد، المؤسسة العربية للنشر- عمّان، الطبعة الأولى: ٢٠٠٢.

الفهرس

المقدمة ٣٩٣
المبحث الأول: السقف المحفوظ في القرآن الكريم ٣٩٦
المطلب الأول: السقف المحفوظ من الشرك ٣٩٨
المطلب الثاني: السقف المحفوظ من الشياطين ٣٩٩
المطلب الثالث: السقف المحفوظ من الهدم والنقض ٤٠٤
المطلب الرابع: السقف المحفوظ بمعنى الحافظ ٤٠٥
المبحث الثاني: السقف المرفوع في القرآن الكريم ٤١١
المطلب الأول: السقف المرفوع متماسك ومحكم..... ٤١٢
المطلب الثاني: السقف المرفوع مبني بغير أعمدة مرئية ٤١٥
المطلب الثالث: السقف المرفوع محبوك بدقة عالية ٤٢١
الخاتمة ٤٢٦
المصادر والمراجع ٤٢٨
الفهرس ٤٣٤

* * *